يُثْخِنَ في الأرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَكُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً ﴾[٦] [الأنفال ٦٧/٨] .

العبر والعظات :

تنطوي غزوة بدر الكبرى على دروس وعظات جليلة ، كما تتضمن معجزات باهرة تتعلق بتأييد الله ونصره للمؤمنين المتمسكين بمبادئ إيمانهم المخلصين في القيام بمسؤوليات دينهم .

ونحن نجمل هذه الدلائل والدروس فيما يلي :

أ ـ يدلنا السبب الأول لغزوة بدر أن الدافع الأصلي لخروج المسلمين مع رسول الله ﷺ ، لم يكن القتال والحرب ، وإنما كان الدافع قصد الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام تحت إشراف أبي سفيان ، غير أن الله تبارك وتعالى أراد لعباده غنيمة أكبر ، ونصراً أعظم ، وعملاً أشرف وأكثر انسجاماً مع الغاية التي ينبغي أن يقصدها المسلم في حياته كلها ، فأبعد عنهم العير التي كانوا يطلبونها ، وأبدلهم بها نفيراً لم يكونوا يتوقعونه ، وفي هذا دليل على أمرين :

الأمر الأول : أن عامة ممتلكات الحربيين تعدّ بالنسبة للمسلمين أموالاً غير محترمة ، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ماامتدت إليه أيديهم منها ، وما وقع تحت يدهم من ذلك اعتبر ملكاً لهم . وهو حكم متفق عليه عند عامة الفقهاء ، على أن للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم في مكة عذراً آخر في القصد إلى أخذ عير قريش والاستيلاء عليها ، وهو محاولة التعويض ـ أو شيء من التعويض ـ عن ممتلكاتهم التي بقيت في مكة واستولى عليها المشركون من ورائهم .

الأمر الثاني : أنه على الرغم من مشروعية هذا القصد ، فإن الله تعالى أراد لعباده المؤمنين قصداً أرفع من ذلك وأليق بوظيفتهم التي خلقوا من أجلها ، ألا وهي الدعوة إلى دين الله والجهاد في سبيل ذلك ، والتضحية بالروح والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ، ومن

---

(٦) صحيح مسلم : ١٥٧/٥ ـ ١٥٨

هنا كان النصر العظيم حليف أبي سفيان في النجاة بتجارته ، بمقدار ما كانت الهزيمة العظيمة حليف قريش في ميدان الجهاد بينهم وبين المسلمين . وإن هذه التربية الإلهية لنفوس المسلمين لتتجلى بأبرز صورها في قوله تعالى :

﴿ وإذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أنَّها لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافِرينَ ﴾ [الأنفال ٧/٨] .

٢ ـ وعندما نتأمل كيف يجلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه ليشاورهم في الأمر الذي فوجئوا به بعد أن أفلت منهم العير وطلع عليهم النفير العظيم المدجج بالسلاح الكامل ، نقف على دلالتين شرعيتين لكل منهما أهمية بالغة :

الدلالة الأولى : التزامه ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه ، وإذا استعرضنا حياته ﷺ ، وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص فيه من كلام الله تعالى ، مما له علاقة بالتدبير والسياسة الشرعية ، ومن أجل هذا أجمع المسلمون على أن الشورى في كل ما لم يثبت فيه نص ملزم من كتاب أو سنّة ، أساس تشريعي دائم لا يجوز إهماله . أما ما ثبت فيه نص من الكتاب أو حديث من السّنة أبرم به الرسول ﷺ حكمه ، فلا شأن للشورى فيه ولا ينبغي أن يقضى عليه بأيّ سلطان .

الدلالة الثانية : خضوع حالات الغزو والمعاهدات والصلح بين المسلمين وغيرهم لما يسمى بالسياسة الشرعية أو ما يسميه بعضهم بـ (حكم الإمامة) . وبيان ذلك أن مشروعية فرض الجهاد من حيث الأصل ، حكم تبليغي لا يخضع لأي نسخ أو تبديل ، كما أن أصل مشروعية الصلح والمعاهدات ثابت لا يجوز إبطاله أو اجتثاثه من أحكام الشريعة الإسلامية . غير أن جزئيات الصور التطبيقية المختلفة لذلك ، تخضع لظروف الزمان والمكان وحالة المسلمين وحالة أعدائهم ، والميزان الحكم في ذلك إنما هو بصيرة الإمام المتدين العادل وسياسة الحاكم المتبحر في أحكام الدين مع إخلاص في الدين وتجرد في القصد ، إلى جانب اعتماد دائم على مشاورة المسلمين والاستفادة من خبراتهم وآرائهم المختلفة .

فإذا رأى الحاكم أنّ من الخير للمسلمين أن لا يجابهوا أعداءهم بالحرب والقوة ، وتثبّت من صلاحية رأيه بالتشاور والمذاكرة في ذلك ، فله أن يجنح إلى سلم معهم لا يصادم نصّاً من

النصوص الشرعية الثابتة ، ريثما يأتي الظرف المناسب والملائم للقتال والجهاد . ولـه أن يحمل رعيته على القتال والدفع إذا مارأى المصلحة والسياسة الشرعية السليمة في ذلك الجانب .

وهذا مااتفق عليه عامة الفقهاء ودلّت عليه مشاهد كثيرة من سيرتـه ﷺ اللهم إلا إذا داهم العـدو المسلمين في عقر دارهم وبـلادهم ، فـإن عليهم دفعـه بـالقـوة مهما كانت الـوسيلـة والظروف ، ويعمّ الواجب في ذلك المسلمين والمسلمات كافـة بشرط الحـاجـة وتوفر مقومـات التكليف .

ثم إن الصحيح الذي اتفق عليه عامة الفقهاء أن هذه الشورى مشروعـة ولكنهـا ليست بملزمة ، أي إن على الحاكم المسلم أن يستنير بها في بحثـه ورأيـه ، ولكن ليس عليـه أن يـأخـذ بآراء الأكثرية مثلاً لوخالفوه في رأيه .. ويقول القرطبي في هذا :

« المستشير ينظر في اختلاف الآراء ، وينظر أقربهـا إلى الكتـاب والسّنـة إن أمكنـه ، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منها عزم عليه ، وأنفذه متوكلاً عليه »(٧) .

٣ ـ ولا شك أن الباحث ليتسـاءل : لمـاذا لم يقع جواب أبي بكر وعمر والمقـداد موقعـاً كافيـاً من نفس الرسول ﷺ ، وظل ينظر في وجوه القـوم ، حتى إذا تكلم سعـد بن معـاذ ، اطمأن وطابت نفسه عند ذاك ؟

والجواب ، أن النّبي عليه الصلاة والسلام إنما كان يريد أن يعرف رأي الأنصـار أنفسهم في ذلك الأمر : ترى هل سيصدرون في آرائهم وأحكامهم عن المعـاهـدة التي تمت بينهم وبينـه عليه الصلاة والسلام من حيث إنها معاهدة خـاصـة تستوجب الالتزام بهـا ، وإذن فليس من حقـه أن يجبرهم على القتـال معـه والـدفـاع عنـه إلا في داخـل المـدينـة كما تنص على ذلـك المعاهدة . أم سيصدرون عن مشاعرهم الإسلامية ومعاهدتهم الكبرى مع الله تعـالى ؟ إذن فمن حق النّبي ﷺ أن يكون الأمين فيهم على هذه المعاهدة ومن واجبهم أن يبـذلوا حقوق هـذه المعاهدة ويقوموا بمسؤولياتها كاملة .

ولدى التأمل فيما أجاب به سعد بن معاذ ، نعلم أن المبايعة التي ارتبط بهـا الأنصـار مع رسـول الله ﷺ في مكـة قبـل الهجرة ، لم تكن إلا مبـايعـة مـع الله تعـالى ، ولم يكـونـوا

---

(٧) الجامع لأحكام القرآن : ٢٥٢/٤

يتصورون وهم يلتزمون الدفاع عن رسول الله ﷺ حينما يهاجر إليهم إلا دفاعاً عن دين الله تعالى وشريعته . فليست القضية مسألة نصوص معينة اتفقوا مع رسول الله ﷺ عليها فهم لا يريدون أن يلتزموا بما وراءها ، وإنما المسألة أنهم إنما وقّعوا بذلك تحت صك عظيم تضمن قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اشترَى مِنَ المؤمنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ فيَقْتُلونَ ويُقْتَلُونَ .. ﴾ [التوبة ١١١/٩] .

ولذلك كان جواب سعد رضي الله عنه : « لقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ماجئت به هو الحق .. فامض لما أردت فنحن معك » . أي فنحن نسير معك وفق معاهدة أعظم من تلك التي اتفقنا عليها معاً ، في بيعة العقبة .

٤ ـ يجوز للإمام أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين ، يبثهم بين الأعداء ليكتشف المسلمون خططهم وأحوالهم وليتبيّنوا ماهم عليه من قوة في العدة والعدد . ويجوز اتخاذ مختلف الوسائل لذلك ، بشرط أن لاتنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو ، وربما استلزمت الوسيلة تكتماً أو نوعاً من المخادعة أو التحايل . وكل ذلك مشروع وحسن من حيث إنه واسطة لابد منها لمصلحة المسلمين وحفظهم .

وقد جاء في كتب السيرة أن النّبي ﷺ لما نزل قريباً من بدر ، ركب هو ورجل من أصحابه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله النّبي ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم . فقال الشيخ : « لاأخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فقال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم . فأخبره الشيخ بما يعلم من أمر المشركين ، وبما قد سمعه من أمر النّبي وأصحابه ، حتى إذا فرغ من كلامه قال : فممن أنتما ؟ فقال النّبي ﷺ : نحن من ماء ، ثم انصرف عنه . فأخذ الشيخ يقول : مامن ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ » .

٥ ـ (**أقسام تصرفاته ﷺ**) : ويدلنا الحديث الذي جرى بين رسول الله ﷺ والحباب بن المنذر في شأن المكان الذي نزل فيه (وهو حديث صحيح الإسناد كما رأيت) أن تصرفات النّبي ﷺ ليست كلها من نوع التشريع ، بل هو في كثير من الأحيان يتصرف من

حيث إنه بشر من الناس يفكر ويدبر كما يفكر غيره ، ولا ريب أننا لسنا ملزمين باتباعه في مثل هذه التصرفات ، فمن ذلك نزوله عليه الصلاة والسلام في المكان الذي اختاره في هذه الغزوة . فقد وجدنا كيف أن الحباب أشار بالتحول عنه إلى غيره ووافقه عليه الصلاة والسلام في ذلك ، وذلك بعد أن استوثق الحباب رضي الله عنه أن اختيار النّبي ﷺ لذلك المكان ليس بوحي من عند الله . ومن ذلك كثير من تصرفاته التي تدخل تحت السياسة الشرعية والتي يتصرف فيها النّبي ﷺ من حيث إنه إمام ورئيس دولة لا من حيث إنه رسول يبلغ عن الله تعالى ، مثل كثير من عطاءاته وتدابيره العسكرية . وللفقهاء تفصيل واسع في هذا البحث ، لا مجال لعرضه في هذا المقام .

٦ ـ (**أهمية التضرع لله وشدة الاستعانة به**) : لقد رأينا أن النّبي ﷺ كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم ، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول : « هذا مصرع فلان » ، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث الصحيح .

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له ، يجأر إلى الله تعالى داعياً ومتضرعاً ، باسطاً كفيه إلى السماء يناشد الله عزّ وجلّ أن يؤتيه نصره الذي وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر ، والتزمه قائلاً : « كفى يارسول الله ، إن الله منجز لك ما وعد » . فلماذا كل هذه الضراعة مادام أنه مطمئن إلى درجة أنه قال : « لكأني أنظر إلى مصارع القوم » ، وأنه حدّد مصارع بعضهم على الأرض ؟

والجواب ؛ أن اطمئنان النّبي ﷺ وإيمانه بالنصر ، إنما كان تصديقاً منه للوعد الذي وعد الله به رسوله ، ولا شك أن الله لا يخلف الميعاد ، وربما أوحي إليه بخبر النصر في تلك الموقعة .

أما الاستغراق في التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء ، فتلك هي وظيفة العبودية التي خُلق من أجلها الإنسان ، وذلك هو ثمن النصر في كل حال .

فما النصر ـ مهما توفرت الوسائل والأسباب ـ إلا من عند الله وبتوفيقه ، والله عزّ وجلّ لا يريد منّا إلا أن نكون عبيداً له بالطبع والاختيار ، وما تقرّب متقرّب إلى الله بصفة أعظم

من صفة العبودية ، وما استأهل إنسان بواسطة من الوسائط استجابة دعاء من الله تعالى ، كما استأهل ذلك بواسطة ذلّ العبودية يتزيّى ويتبرقع به بين يدي الله تعالى .

وما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به ، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته ، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته ، كي يفرّ إليه سبحانه وتعالى ويبسط أمامه ضعفه وعبوديته ، ويستجير به من كل فتنة وبلاء ، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها ، فقد وصل إلى الحدّ الذي أمر الله عباده جميعاً أن يقفوا عنده وينتهوا إليه .

فهذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النّبي ﷺ وشدة ضراعته ومناشدته لربّه أن يؤتيه النصر ، هي الثمن الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم في تلك المعركة . وقد نصّت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال ٩/٨] . ويقيناً منه ﷺ بهذه العبودية لله عزّ وجلّ ، كان واثقاً بالنصر مطمئناً إلى أن العاقبة للمسلمين . ثم قارِنْ مظهر العبودية التي تجلت في موقفه ﷺ ونتائج ذلك ، مع مظهر ذلك الطغيان والتّجبر الذي تجلى في موقف أبي جهل حينما قال : « لن نرجع عن بدر أبداً حتى ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا » ، وتأمل في نتائج ذلك التجبر والجبروت !..

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى ، عزة قعساء ومجداً شامخاً خضع لهما جبين الدنيا بأسرها ، ولقد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبراً من الضيعة والهوان أقيم لأربابها حيث كانوا سيتساقون فيه الخمر وتعزف عليهم القيان . وتلك هي سنة الله في الكون كلما تلاقت عبوديةٌ لله خالصة مع جبروتٍ وطغيانٍ زائفين .

٧ ـ (الإمداد بالملائكة في غزوة بدر) : انطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين . فقد أمدّ الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم . وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب والسّنة الصحيحة . روى ابن هشام أنّ النّبي ﷺ

خفق خفقة في العريش ثم انتبه فقال : « أبشر ياأبا بكر ، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع » ورواه البخاري أيضاً بلفظ قريب منه[٨] .

ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة في بيان الله عزّ وجلّ ليس المقصود به ما يتوهمه بعضهم من المدد الروحي أو القوة المعنوية أو نحو ذلك ـ أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطلان هذا الوهم ـ ضبط البيان الإلهي الملائكة بعدد محدود وهو الألف ، في قوله عزّ وجلّ : ﴿ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الملائِكَةِ مُرْدِفينَ ﴾ [الأنفال ٩/٨] . إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل في الأشياء ، ولا يكون ذلك إلاّ في الأشياء المادية المحسوسة .

ومن هنا نعلم أن تقييد البيان الإلهي الملائكة بعدد معين ينطوي على حكم باهرة من أجلّها قطع السبيل على من يريد أن يتناول الآية ، ويفسر الملائكة بالمعنى الذي يروق له وهو مجرد الدعم المعنوي .

ثم إن نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ـ إنما هو مجرد تطمين لقلوبهم ، واستجابة حسية لشدة استغاثتهم اقتضاها أنهم يقفون مع أول تجربة قتال في سبيل الله ، لأناس يبلغون ثلاثة أضعافهم في العدة والعدد . وإلا فإن النصر من عند الله وحده ، وليس للملائكة أي تأثير ذاتي في ذلك . ومن أجل بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى معلّلاً نزول الملائكة : ﴿ وما جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرَى ولِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وما النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ ﴾ [الأنفال ١٠/٨] .

٨ ـ (**الحياة البرزخية للأموات**) : في وقوف رسول الله ﷺ على فم القليب ينادي قتلى المشركين ويكلمهم بعدما ماتوا ، وفيما قاله لعمر رضي الله عنه إذ ذاك ، دليل واضح على أن للميت حياة روحية خاصة به ، لاندري حقيقتها وكيفيتها ، وأن أرواح الموتى تظل حائمة حول أجسادهم ، ومن هنا يتصور معنى عذاب القبر ونعيمه ، غير أن ذلك كله إنما يخضع لموازين لاتنضبط بعقولنا وإدراكاتنا الدنيوية هذه ، إذ هو مما يسمى بعالم الملكوت البعيد

---

(٨) ولفظه في البخاري ، أن النّبي ﷺ قال : هذا جبريل آخذ بزمام فرسه عليه أداة حرب . راجع صحيح البخاري : ١٤/٥

عن مشاهداتنا وتجاربنا العقلية والمادية . فطريق الإيمان بها إنما هو التسليم لها بعد أن تصلنا بطريق ثابت صحيح .

٩ ـ ثم إن مسألة الأسرى ، بما تضمنته من مشاورة الرسول ﷺ في شأنهم ، وما أعقبها من حكم افتدائهم بالمال ثم نزول آيات تعتب على النّبي ﷺ وعلى أصحابه اتخاذ ذلك الحكم ، نقول إن لهذه المسألة دلالات هامة :

أولاً : (الأسرى واجتهاد الرسول ﷺ) : دلّتنا هذه الواقعة على أن النّبي ﷺ كان له أن يجتهد ، والذين ذهبوا إلى هذا ـ وهم جمهور علماء الأصول ـ استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر . وإذا صحّ أن يجتهد ، صحّ منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب . غير أن الخطأ لا يستمر ، بل لا بدّ أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده ، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده ﷺ قد وقع على ماهو الحق في علم الله تعالى .

قال شارح اللمع : « وقد كان الخطأ عليه جائزاً ، إلا أنه لا يُقرُّ عليه ، بل ينبّه عليه سريعاً » ، وقال أبو إسحاق الشيرازي : « ومن أصحابنا من قال : ما كان يجوز عليه الخطأ ، وهذا خطأ ، لقوله تعالى : ﴿ عفا اللهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ فيدل على أنه أخطأ »[٩] ، [التوبة ٤٣/٩] .

وقال الأسنوي في شرحه على المنهاج : « واختار الآمدي وابن الحاجب أنه يجوز عليه الخطأ بشرط أن لا يقرّ عليه . ونقله الآمدي عن أكثر أصحابنا والحنابلة وأصحاب الحديث »[١٠] .

وقال الإمام البيضاوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ ما كانَ لِنَبِيٍّ أنْ يكُونَ لَهُ أسْرَى ﴾ [الأنفال ٦٧/٨] الآية .. « والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يُقَرُّون عليه » .

وقد يستعظم البعض نسبة الخطأ إلى رسول الله ﷺ ، متوهمين أن الخطأ هو الإثم

---

(٩) انظر شرح اللمع لأبي إسحاق الشيرازي : ٨٢٤

(١٠) الأسنوي على المنهاج : ٥٣٧/٤

أو الانحراف أو نحو ذلك مما يتنافى مع العصمة الثابتة للأنبياء . غير أن المقصود بالخطأ هنا عدم مطابقة اجتهاده ﷺ لما هو الكمال الثابت في علم الله عزّ وجلّ . وهو لا يتنافى مع عصمته ﷺ ، بل هو مثاب من الله تعالى عليه . والناس مكلفون باتباعه في ذلك مالم تتنزل عليه آية تصرفه إلى حكم آخر شأنه شأن الحاكم إذا اجتهد . وهكذا فإن اجتهاده ﷺ فيما لم ينزل عليه وحي يتعلق به ، له طرف ناظر إلى الناس ، وطرف آخر يتعلق بعلم الله تعالى . فأما اجتهاده بالنسبة للطرف الأول ، فلا يوصف بالخطأ البتة ، لأن الناس مكلفون باتباعه على كل حال كاتباعهم لسائر المجتهدين من بعده ، إذ لاسبيل لهم للاطلاع على الخفي الثابت في علم الله عزّ وجلّ . وأما اجتهاده بالنسبة للطرف الثاني أي المتعلق بعلم الله عزّ وجلّ ، فخاضع لوصفي الصحة والخطأ ، إذ هو قابل لموافقة ماهو الكمال الثابت في علمه عزّ وجلّ ، ولعدم موافقته له . والكمال المطلق إنما هو لله عزّ وجلّ . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يرقى في الكمالات متجاوزاً المراحل التي كانت تبدو له نقصاً وتقصيراً بالنسبة لما ارتقى إليه من بعد ، وكان يستغفر الله من تلبسه بها كاستغفارنا من الذنوب ، ويقول : « إنه ليغان على صدري فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » .

ثانياً : كما أن غزوة بدر هي أول تجربة للمسلمين في التضحية والقتال في سبيل الله تعالى وهم على ما كانوا عليه من الضعف والقلة ، فكذلك هي أول تجربة لهم في رؤية الغنائم والأموال أمامهم في أعقاب المعركة ، وهم على ما كانوا عليه من الفقر والحاجة . وقد عالجت الحكمة الإلهية تجربة القتال مع الضعف بأن ثبّت الله قلوبهم وطمأن نفوسهم ـ كما ذكرنا ـ بالخوارق الدالة على النصر .

ثم عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم والأموال مع الحاجة والفقر ، بوسائل تربوية دقيقة ، جاءت في وقتها المناسب ، وقد تجلى أثر هذه التجربة في مشهدين ، على أعقاب هذه الغزوة . أما المشهد الأول فحينما انهزم المشركون وتركوا وراءهم أموالهم المختلفة ، فقد تسابق بعض المسلمين إليها واختلفوا بعضهم مع بعض في كيفية استحقاقهم لها وكادوا يشتجرون على ذلك ، ولم يكن قد نزل بعدُ حكم توزيع الغنائم بين المقاتلين فراحوا يسألون النّبي عليه الصلاة والسلام ويُنهون إليه خصومتهم في الأمر . وعندئذٍ نزل قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ والرَّسُولِ ، فاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ

وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَـهُ إنْ كُنْتُمْ مؤمِنِينَ ، إنّما المؤمنونَ الـذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عليهِمْ آياتُهُ زادَتهُمْ إيماناً وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلونَ ﴾ [الأنفال ٨/١ ـ ٢] .

فأنت تـدري أن الآيتين لا تنطويـان على جواب سؤالهم ، بل فيهما صرف لهم عن الموضوع كله ، إذ هي تقول : إن الأنفال ليست لأحد منهم ، بل هي لله ورسولـه ، أمـا هم فعليهم إصلاح هـذا الشقـاق الـذي وقـع فيما بينهم وإطـاعـة الله في أوامره ، واجتنـاب نـواهيــه ، فتلــك هي وظيفتهم ، أما المال والدنيا ، فليعتمدوا فيهما على الله تعالى . فلما ثـاب هؤلاء المسلمون إلى هـدي هاتين الآيتين وصرفوا النظر عما اشتجروا من أجله نزلت آيات أخرى تقرر كيفية تقسيم الغنـائم بين المقاتلين على اختلافهم . وهذه من أبرع الوسائل التربوية الدقيقة كما ترى .

وأما المشهد الثاني ، فهو عندما تشاور النّبي ﷺ مع أصحـابـه في شـأن الأسرى ، فقـد سكنت نفوسهم إلى افتـدائهم بـالمـال . وقـد كانت المـلاحظـة في ذلـك هي الجمع بين الرحمـة والرفق بـالأسرى ، عسى أن يرعووا ويـؤمنـوا بـالله ، والتعـويض عمـا فـات المهـاجرين من أموالهم التي تركوها في مكة عسى أن يقع موقعاً لديهم ويساعدهم على إصلاح شؤون دنيـاهم . وهذا الرأي الذي سكنت إليه نفس رسول الله ﷺ يـدل على مـدى شفقتـه على أصحـابـه . وهذه الشفقة هي التي جعلت يده ﷺ ترتفع بالدعاء للمهاجرين لمـا رآهم لـدى خروجهم إلى بدر ، وإن علائم الحاجة والفقر بـاديـة عليهم قـائلاً : « اللهم إنهم حفـاة فـاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكسهم ، وإنهم جياع فأشبعهم »[11] .

ولكن الحكمة الإلهية لم ترد للمسلمين أن يجعلوا من النظرة إلى المال ميزاناً أو جزء ميزان للحكم في قضـاياهم الكبرى التي قامت على أسـاس النظرة الـدينيـة وحـدهـا مهما كانت الحـال والظروف ، إذ يوشك ، لوتُركوا لهذه النظرة وهم أمام أول تجربة من هـذا النوع ، أن يجري ذلك مجرى القاعـدة المطردة فتستولي النظرة المـاديـة على مثل هـذه الأحكام التي ينبغي أن تظل متسامية في علياء لا يطولهـا شيء من أغراض الـدنيـا على اختلافهـا ، ومن الصعب لمن سار وراء الدنيا أشواطاً واستطاب مذاقها أن يرتد عنها ويفطم نفسه عن مذاقها .

روى مسلم عن عمر بن الخطـاب أنـه قـال : دخلت على رسول الله ﷺ بعـد أن قضى

---

(١١) أبو داود . عن جمع الفوائد : ٩٠/٢